

المقاصد التربوية للتصوف ودورها في إصلاح المجتمع

The educational objectives of Sufism and its role in reforming society

د / مباركة حاجي *

قسم الفلسفة - جامعة الجزائر 2

mbarka.hadji@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/03/15

تاريخ القبول: 2021/02/04

تاريخ الاستلام: 2020/11/25



ملخص:

يتناول هذا المقال موضوع المقاصد والأهداف المنشودة من التصوف، باعتباره جزءا خصب من الدين، يعنى بتربية الفرد والجماعة، والارتقاء بالسلوك والوجدان لتحقيق الكمالات الإنسانية الهادفة إلى الإصلاح والتربية، وكذا نشر الوعي بمبدأ الاستخلاف في أرقى مراتبه؛ لحيازة خيري الدنيا والآخرة.

الكلمات المفتاحية:

تصوف؛ مقاصد؛ تربية؛ سلوك؛ إصلاح.

Abstract :

This article deals with the topic of the aims and objectives of Sufism, as it is an important part of religion. It is concerned with the upbringing of the individual and the group, and working to elevate behaviour and conscience to achieve human perfection aimed at reform and education, as well as spreading awareness of the principle of succession at its highest level.

Keywords:

Sufism; objectives; education; behaviour; reform.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

لقد حدد الصوفية أن منهاج السلوك الصوفي هو التربية الوجدانية عبر التحقق بمقامات الأخلاق والمجاهدات كالصمت والتواضع والتوبة والصبر والذكر والجود وبسط الوجه وغيره من مظاهر التربية الروحية، غير أن الإكسير الفعال الذي يقوم عليه طريق السالكين وتتمحور حوله درجة الإحسان من الإيمان هو حب الله الذي هو جوهر التصوف وسمته الكبرى. فالإيثار والتواضع والرّحمة وإطعام الجائع، وتفقد الجار وصلة الرّحم كلها شعب تصنع رباطاً من الحب والتعاطف والتراحم والأخوة التي طولب بها المسلمون.

نحاول في هذا البحث الوقوف على مقاصد التصوف باعتباره علم حادث في الملة، بالإضافة إلى حيويته وطرقه التربوية المختلفة والمتعددة وفعاليتها ونجاعتها في التأثير على المجتمع وعلاج الكثير من أمراضه وأدوائه.

وسنحلل هذه المسائل من خلال الإجابة عن الإشكال التالي: إذا كانت ماهية التصوف هي بلوغ درجة الإحسان من الإيمان مجاله التربية الروحية وتزكية النفس، كيف السبيل إلى تفعيل طرائقه التربوية بما يعالج أدواء المجتمع وأمراضه المتعددة، وجعله النبع الصافي المنضبط بمصادرنا الروحية الواضحة الصافية، ونقصد بها القرآن والسنة على مذهب مالك وطريقة الجنيد السالك؟

وللإجابة على هذا الإشكال نعمل على المنهج التحليلي الاستقرائي بالوقوف على النقاط التالية:

1. ضابط الإيمان لصحة السلوك الصوفي.
2. البعد المقاصدي للتصوف.
3. آليات تفعيل التربية الروحية والتصوف.

خاتمة.

التصوف كما يرى ابن خلدون "علم حادث في الملة" شأنه شأن علم أصول الفقه وعلم القراءات وعلم الكلام وغيره..، له موضوع هو التزكية، طبيعته ذوقية محضة، ومنهجه التربية الروحية، فهو دائر في محيط الدين محكوم بخاصيتين هما الملائمة المستمرة بين الذوق وأحواله ومقاماته ومن أصول الدين وضوابطه، فهو جانب من أخصب جوانب الحياة الروحية في الإسلام لأنه تعميق لمعاني العقيدة. واستبطان لظواهر الشريعة، وتأمل لأحوال الإنسان في الدنيا، وتأويل للرموز والشعائر.

لقد حدد الصوفية أن منهاج السلوك الصوفي هو التربية الوجدانية عبر التحقق بمقامات الأخلاق والمجاهدات: الصمت، التواضع، التوبة، الصبر، الذكر، التسامح والإحسان في العمل، الجود، بسط

الوجه، الأمانة والرحمة وإطعام الجائع، وتفقد الجار وصلة الرحم، وكلها شعاع من أشعة الإيمان التي طوّل بها المسلم.

2. ضابط الإيمان لصحة السلوك الصوفي:

إن التصوف هو روح الإسلام وتمثل لدرجة الإحسان من الإيمان التي أشار إليها الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم فيما ورد في صحيح مسلم عن عمر ابن الخطاب: في حديث جبريل الطويل وفيه: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، ومقام الإحسان من أعلى مراتب الدين وأكملها لأن معاني صدق التوجه لهذا الأصل راجعة، وعليه دائرة، إذ لفظه دال على طلب المراقبة الملزومة به، فكان الحضر عليها حضاً على عينه، كما دار الفقه على مقام الإسلام والأصول على مقام الإيمان، فالتصوف أحد أجزاء الدين الذي علمه جبريل عليه السلام، ليتعلمه الصحابة رضي الله عنهم¹.

ولعل الباحث في التربية الصوفية تستوقفه للوهلة الأولى خاصية ترقية البعد الإيماني في الفرد من خلال طبيعة السلوك والرياضات الروحية التي تعتمد الطرق الصوفية، فقد اشتغلت الأذكار والأوراد الصوفية على ترقية البعد الإيماني في الفرد، سواء على مستوى الوجدان أو على مستوى السلوك الاجتماعي، فالصحة الإيمانية في المنظور الصوفي تعتمد في تحديد ماهية الإيمان انطلاقاً من نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة منها: الحديث النبوي الذي ورد في صحيح مسلم، مروياً عن عمر بن الخطاب تعريفاً للإيمان قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"².

كما نجد في كتب التصوف تعريفات كثيرة للإيمان، تخضع في إيرادها إلى سياقات مختلفة منها ما يروى عن سيد الطائفة الإمام الجنيد (سنة 297 هـ)، مثلاً جوابه لما سئل عن الإيمان وكانت أجوبته تختلف باختلاف السياق، يقول مرة: "الإيمان هو التصديق والإيقان، وحقيقة العلم بما غاب عن الأعيان..."³.

وقال في أخرى: "الإيمان هو الذي يجمعك إلى الله، ويجمعك بالله، والحق واحد والمؤمن متوحد"⁴.

وقال في أخرى: "هذا سؤال لا حقيقة له، ولا معنى ينبئ عن مزيد من علم، إنما هو الإيمان بالله جل ثناؤه مجرداً، وحقيقته في القلوب مفرداً، وإنما هو ما قر في القلب من العلم بالله، والتصديق بما خبر من أموره في سائر سمواته وأرضه، مما ثبت في الإيقان، وإن لم أره بالعيان"⁵.

ويعرف أبو القاسم القشيري أيضاً الإيمان ويميزه عن الإسلام استناداً إلى ما ورد في الآية الرابعة عشرة من سورة الحجرات، فيقول قوله جل ذكره: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَآمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا...﴾ الحجرات: 14، الإيمان هو حياة القلب والقلب لا يحيا إلا بعد ذبح النفس، والنفوس لا تموت ولكنها تغيب،

ومع حضورها لا يتم خير، والاستسلام في الظاهر لإسلام، وليس كل من استسلم ظاهرا مخلص في سره: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات: 14، في هذا دليل على أن محل الإيمان القلب، كما أنه في وصف المنافقين ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ البقرة: 10، ومرض القلب والإيمان ضدان⁶، فمحل الإيمان القلب وطريقة تحقيقه كبح النفس وذلك بتطهيرها من انحرافها.

لقد حدد الصوفية مرتكزات الإيمان استنادا إلى الحديث النبوي المشار إليه سالفًا حول التمييز بين الإسلام والإيمان والإحسان، وهو الأكثر تداولًا في مقالاتهم، فقد خاضوا في دلالاته، ووقعت الإشارة في أكثر من موضع إلى مرتكزات الإيمان استنادا إليه، فنجد أن أبا حامد الغزالي قد خصص فصلا في كتابه (إحياء علوم الدين) واختار له عنوانا: "في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال، وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان"، وأورده استثناء السلف فيه.

وقد عرض في الاختلاف والاضطراب في تحديد دلالات الإيمان والإسلام، من خلال استدعاء ثلاثة مباحث أو سياقات مختلفة: "بحث عن موجب اللفظتين في اللغة، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة، والبحث الأول لغوي، والثاني تفسيري، والثالث فقهي شرعي..."

فموجب اللغة أن الإسلام أعم، والإيمان أخص... والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد، وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل... وللإسلام والإيمان حكمان: أخروي، ودنيوي.

أما الأخروي فهو الإخراج من النار، ومنع التخليد... حكم الدنيا الذي يتعلق بالأئمة والولاة من المسلمين، لأن قلبه لا يطلع عليه، وعلمنا أن نظن أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منظور عليه في قلبه⁷.

يضع صاحب الإحياء ثلاث مستويات للإيمان "عقدا وقولا وعملا"⁸، ثم ينتهي إلى استنتاج مفاده أن الإيمان "... اسم مستدرك يطلق من ثلاثة أوجه نقف عند الوجه الأول حيث يرى: أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف، وانشرح صدر، وهو إيمان العوام، بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص... وينتهي إلى ... أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف، وانشرح الصدر، والمشاهدة بنور البصيرة"⁹.

ويقوم أبو حامد نوعا من المفاضلة بين مراتب الإيمان، العليا لأهل الطريق وتبنى على اليقين والكشف والتقليد، وهذا التفاضل بين درجات الإيمان نجده دارجا بين مصنفات أهل الطريق، نأخذ مثالا آخر يقوم على ثنائية في تعريف الإيمان حيث يقول السراج الطوسي (ت378هـ). في تعريف الإيمان: "الإيمان ظاهرا وباطنا"¹⁰.

إن الإيمان في عرف الصوفية تجربة تعايش وليست إقرارا باللسان واعتقاد بالقلب فحسب، فلا كمال للإيمان إلا بما تعلق العمل، يقول القشيري في هذا الباب: "حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق، وموجب الأمرين التوقيف، والتصديق بالعقل، والتحقيق ببذل الجهد في حفظ العهد، ومراعاة الحد، فالمؤمنون هم اللذين صدقوا باعتقادهم، ثم الذين صدقوا في اجتهداهم"¹¹.

والمؤمنون متفاوتون في بلوغ درجات الإيمان وهذا ما يؤكد سفيان الثوري (97-161هـ) في قوله: "الإيمان يزيد، والناس عندنا مؤمنون مسلمون، لكن الإيمان متفاوت، وجبريل أفضل إيمانا منك"¹².

وتجدر الإشارة هنا إلى الجدل الكلامي الذي لم يكون الصوفية بمنأى عنه وفي هذا الموضوع، حيث تنتهي أغلب آراء أهل الطريق في مسألة الإيمان إلى ما انتهى إليه الإمام الأشعري (260هـ - 324هـ) الذي يعرف الإيمان بقوله: "... هو التصديق بالجنان، وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه، فمن صدق بالقلب: أي أقر بوحدانية الله تعالى، واعترف بالرسول تصديقا لهم فيما جاؤوا به من عند الله تعالى، صح إيمانه حتى لو مات عليه في الحال كان مؤمنا ناجيا، ولا يخرج من الإيمان إلا بإنكار شيء من ذلك"¹³.

لقد كان تصور السادة الصوفية وقناعتهم بتفاضل درجات الإيمان دافعا لوضع ضوابط للتجربة الإيمانية والتعبدية، وانتهوا إلى تحديد شروط لبلوغ درجة الإيمان الكامل المنشود.

3. البعد المقاصدي للتصوف:

إذا كان التصوف هو لب الدين وتمثيل لأعلى درجات الإيمان ونقصد بها الإحسان فلا غرابة إذا قلنا أن البعد المقاصدي للتصوف لا يعدو أن يكون إلا تمثيل لروح المقاصد الشرعية في أعلى مراتبها، ذلك، أن حفظ النفس وحفظ المال، وحفظ الدين وحفظ العرض تغدوا منطلقات وثوابت يعمل التصوف بطريقة عملية على تموضعها بتحقيق الحاكمية الإلهية، عبر السير في طريق السالكين إلى الله، الذين يجعلون حب الله الغاية والوسيلة في نفس الوقت، من خلال التحقق بمقامات الأخلاق والمجاهدات وتحقيق مظاهر التربية الروحية على أن الإكسير الفعال الذي يقوم عليه طريق السالكين وتتمحور حوله درجة الإحسان من الإيمان هو الحب الذي هو جوهر التصوف وسمته الكبرى، حيث اعتبر التصوف عمليا من حيث أنه يرتبط بالمجاهدة والرياضة والأحوال والمقامات لغاية والوسيلة، فقد ظهر التصوف كعلم أخروي يعطي المفاهيم الجامدة من تحليل وتحريم روحا جديدة ويمزجها بالعاطفة الدينية المؤسسة على أعمال القلوب من مقامات وأحوال، وتنحصر هذه الأعمال في التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة والشوق والوجد وغيرها من أحوال الصوفية ومقاماتهم¹⁴.

لقد كانت التصوف رياضة روحية وطريقة ومنهج متسقا مع مقاصد الشريعة الإسلامية ظاهرا وباطنا، "فالإيمان رأس الأعمال وأرفع مراتب السعادة، لأنه أرفع الأعمال الباطنة كلها"¹⁵، ذلك لأن جميع

التكاليف الشرعية التي تعبد بها الإنسان في خاصة نفسه، ترجع إلى نوعين من الأحكام تتعلق بأعمال الظاهر وهي أحكام العبادات والعادات والمعاملات وأحكام تتعلق بالأعمال الباطنة وهي الإيمان وما يتصرف في القلب ويتلون به من الصفات¹⁶، لقوله (صلى الله عليه وسلم) في الحديث المشهور فيما روى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"¹⁷.

ولذلك صار فقه الشريعة على نوعين: فقه الظاهر، وهو معرفة أنفسهم أو ما يجمعهم من عبادات وعادات وغيرها، وما يخص المكلف في نفسه من أعمال الجوارح في عبادته وتناوله لضروراته ويسمى هذا فقه القلوب¹⁸.

ويعتبر فقه الباطن أهم في الدين الإسلامي من فقه الظاهر لأنه الدعامة التي يستقيم بها الظاهر لأن نظر الفقيه في العبادات التي رأسها الإسلام إنما هو من حيث أنها هل تصح فتكون مجزية ويفقه بها الامتثال، ويسقط القضاء، وكذا نظره في الحلال والحرام إنما هو من حيث أنه تصرف في مال الغير فهل ينتزع في درء المستحق شرعا أم لا، وما يترتب على ذلك من آثار سقوط العدالة أو ثبوتها وهذه كلها أمور دنيوية، والمتصوف ينظر في ذلك كله من حيث إنها حزازات القلوب ومؤثرة في الاستقامة التي هي أصل النجاة فيرى أن الصلاة لما كانت عبادة وأصلها التوجه بالقلب، فإنه يبقى منها زادٌ للآخرة ما حصره القلب لا ما غاب عنه لقوله (صلى الله عليه وسلم): "إن الرجل ليصلي الصلاة ليس له نصفها ثلثها أو ربعها إلى عشرين"¹⁹.

لقد حث السادة الصوفية - في تراثهم الفكري - على الوقوف عند النواهي والمحرمات والواجبات والأوامر من حيث اقتضاها أقسام الحكم، واعتبار جلب المصلحة ودرء المفسدة المنبثقة عن امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فلا فرق بين مندوب وواجب أو مكروه أو محرم، وهذا الاعتبار جرى عليه أرباب الأحوال من الصوفية ومن حذا حذوهم من طرح مطالب الدنيا جملة وأخذ بالحزم والعزم في سلوك طريق الآخرة إذ لم يفرقوا بين واجب ومندوب في العمل بهما ولا بين مكروه ومحرم في ترك العمل بل ربما أطلق بعضهم على المندوب أنه واجب على السالك وعلى المكروه أنه محرم وهؤلاء هم الذين عدّوا المباحات من قبيل الرخص²⁰.

ولقد نظر الصوفية إلى معنى الأمر والنهي من زاويا ثلاث :

1- النظر إلى قصد القرب بمقتضاها، فإن امتثال الأوامر واجتناب النواهي -من حيث هي- تقتضي التقرب من المتوجه إليه، كما أن المخالفة تقتضي ضد ذلك .

فطالب القرب لا فرق عنده بين ما هو واجب وبين ما هو مندوب لأن الجميع يقتضيه حسبما دلت عليه

الشريعة كما أنه لا فرق بين المكروه والمحرم لأن الجمع يقتضي نقيض القرب وهو إما البعد وإما الوقوف عن زيادة القرب والتمادي في القرب هو المطلوب²¹.

2- النظر إلى ما تضمنته الأوامر والنواهي من جلب المصالح ودرء المفاسد عند الامتثال وضد ذلك عند المخالفة. فإذا كان التفاوت في مراتب الأوامر والنواهي راجع إلى مكمل خادم ومكمل مخدوم وما هو كالصفة والموصوف فمتى حصلت المندوبات كملت الواجبات وبالضد فالأمر راجع إلى كون الضروريات آتية على أكمل وجوها فكان الافتقار إلى المندوبات كالمضطر إليه في أداء الواجبات فزاحمت المندوبات الواجبات في هذا الوجه من الافتقار فحكم عليها بحكم واحد²².

3- اجتناب الأخذ بالرخص واختيار العزائم، وهذا ما درج عليه أهل الطريق، في ترك الرخص وتحمل المشاق واجتناب البطالة والكسل ومخالفة النفس والهوى، وهذا ما أشاد به الشاطبي أهل الطريقة في قوله: "ولأجل هذا أوصى شيوخ الصوفية على مذهبهم بترك اتباع الرخص جملة وجعلوا من أصولهم الأخذ بعزائم العلم وهو أصل صحيح مليح مما أظهر من فوائدهم رحمهم الله"²³.

وهذا ما نوه به صاحب كتاب "قواعد التصوف" الشيخ زروق الفاسي (846-899) بقوله: "نظر الصوفي للمعاملات أخص من نظر الفقيه، إذ الفقيه يعتبر ما يسقط من الحرج، والصوفي يعتبر ما يحصل من الكمال"²⁴.

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالعزائم وركبوا طريق المجاهدة تصفية القلوب وإعمارها بحب الله. وارتضوا لأنفسهم طريق التزكية يقول الشاطبي مشيراً إلى طريقتهم "فإلف الشيء والاعتیاد عليه يحول الصعب الشديد إلى الميسور المحتمل ودليل ذلك ما يأخذ به أرباب الأحوال أنفسهم من رياضات ومعالجات تصير الشاق وغير المعتاد عند غيرهم إلى مألوف عندهم، وهم ليسوا بدعا في ذلك بل لهم أصل يستندون إليه ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ البقرة آية 45، حيث بين الله عز وجل أن الصلاة كبيرة على المكلف واستثنى الخاشعين الذين كان إمامهم رسول الله عليه الصلاة والسلام فهو الذي كانت قرّة عينه الصلاة حتى كان يستريح إليها من تعب الدنيا ويقول: "أرحنا بها يا بلال"²⁵. وقام بها حتى تورمت قدماه، فإذا كان كذلك فمن خص ورثته في هذا النحو نال من بركة هذه الخاصية"²⁶.

لقد كان حب الله عز وجل المنطلق والغاية عند أهل الطريق فأصبح الشاق سهلاً والبعيد قريباً والصعب ميسوراً، إذ جعلوا ديدنهم وأقصى أمانهم رضا المحبوب عز وجل، حيث يقول "فإننا ندرك ونشاهد أنه قد يكون للعامل المكلف حامل على العمل حتى يخف عليه ما يثقل على غيره من الناس، وحسبنا من ذلك أخبار المحبين الذين صابروا الشدائد وحملوا أعباء المشقات من تلقاء أنفسهم من إتلاف مهجهم إلى ما

دون ذلك، وطالت عليهم الآماد وهم على أول أعمالهم حرصا عليها واغتناما لها طمعا في رضا المحبوب، واعترفوا بان الشدائد والمشاق سهلة عليهم بل لذة لهم ونعيم وذلك بالنسبة إلى غيرهم عذاب شديد وألم أليم وعلى هذا الأصل يتخرج كثير من كبار الصوفية بل و من كبار الصالحين والصحابة والتابعين²⁷.

إن الزمن زمن الفترة والركون إلى الدنيا والتنافس على قشورها الفانية، فلقد امتاز عصرنا الحالي بكثرة الأزمات النفسية والأخلاقية بامتياز، فهو عصر الشهوة والانحراف والنزوة والفراغ الروحي، وقد آن لأصحاب الرقائق من الشيوخ الربانيين من أهل الطريق أن يساهموا في إعادة الاعتبار للتربية الروحية وتزكية النفوس لإعادتها إلى فطرتها.

فينبغي أن يكون للتصوف وأهله الربانيين الحقيقيين دور في إعادة الدعوة إلى الله وتزكية النفوس وتجديد الصلة بالله وإصلاح الباطن، ومواجهة الاجتياح الكبير لقيم غريبة عن الإسلام وصفاته " إنها أزمة روحية وخلقية لا علاج لها، ومشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حل لها فالدهماء والشعب فريسة المادية الرعناء، ونهامة المال العمياء والأمراض الاجتماعية والخلقية، والمثقفون - الثقافة الدينية أو المدنية - فريسة الحرص على الحياة والمنصب والأمراض الباطنية من حسد وشح ورياء وكبر وأنانية وحب الظهور ونفاق ومداينة، وخضوع للمادة وللقوة .. ولا علاج لكل ذلك إلا في (التزكية النبوية) التي نطق بها القرآن وبعث بها الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وفي الربانية التي طوّل بها العلماء... لا بد أن نملاً هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا، ونسد هذا المكان الذي يشغله الدعاة إلى الله ... بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها وصلتها بالله، والدعوة إلى صلاح الباطن، والعناية بالفرد قبل المجتمع²⁸.

إن صلاح المجتمع ينطلق من استقامة الفرد كأول بنية في بنائه، وصلاح الفرد يبدأ بصلاح باطنه لا صلاح ظاهره وهو منهاج رباني محمدي، قوامه الذكر وقراءة القرآن والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وشرطه الصدق والإخلاص وحسن المعاملة والأخلاق الفاضلة وطابع السلام ولين الجانب والإخاء والوفاء، ومحبة الخلق انطلاقاً من محبة الخالق.

4. آليات تفعيل التربية الروحية (التصوف):

يملك التصوف طاقة تربوية هائلة تعمل على إنارة القلوب وتربيتها على المحبة فهو كفيل بترقية الخطاب التربوي والديني على السواء لدى المرشدين والمربين والقائمين على الشأن العام.

إن تفعيل الجانب الروحي في الإنسان المسلم هو الخطوة الأولى في إصلاح أدواء المجتمع ونحتاج في ذلك إلى ما يلي:

1. ربط الإيمان بالأخلاق وإعادة تفعيل الخشية والحياء من الله حتى تعود لكل الشعائر الدينية روحها ووظائفها، فالإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

2. الإسلام نسق أخلاقي وليس شعائر وطقوس جامد فما أبلغ جواب جعفر ابن أبي طالب حين سأله النجاشي عن دينه قال: "أيها الملك.. كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء"²⁹، لقد انطوى جوابه رضي الله عنه على تلخيص وشرح أهم ضوابط السلوك السوي لدى المؤمن، وأهم دعائم العقيدة الإسلامية .

3. إعادة ربط العملية التعليمية بكل مراحلها بروح التربية الروحية الإيمانية، فما فساد أخلاق العالم والمتعلم إلا بسبب فصل التعليم عن التربية، فالكل مسئول عن ما آل إليه المجتمع من جفاف روحي وانحدار أخلاقي وانتشار للعنف.

4. إعادة الاعتبار لدور الزوايا والمساجد في إعداد النشء وربطه بالقرآن والمبادئ السامية للإسلام.
5. السلوك الخلقي المستقيم في التصور الإسلامي ثمرة من ثمار العقيدة الصحيحة وله في كل جوانب الحياة حضور، وتأتي الأخلاق ميدان تطبيقي لمفاهيم العقيدة.

6. إعادة الاعتبار لتراث العارفين من أعلام التصوف في تاريخ الجزائر والذين كانوا مربين دعاة إلى الله مجاهدين سباقين للذود عن حياض الأمة، وتاريخ العارفين منهم ثري وغني بنماذج ساهمت في الحفاظ على عقيدة الإسلام من طرق ووسائل الطمس والدمار الذي أنتجها العدو الغازي الغاشم من أمثال أبا مدين شعيب، والأمير عبد القادر، وعبد الرحمان الثعالبي، والشيخ الحداد وغيرهم كثير.

7. إعادة الاعتبار لدور الزوايا ومناهج الطرق الصوفية في تربية النشأ وتنقيتها مما علق بها من مظاهر الانحراف و البدع التي لا تمت بصلة إلى أهل الطريق.

8. تفعيل دور الشيوخ والمربين الذين يحملون سمت التدين والالتزام الخلقي في إصلاح ذات البين وإقحامهم في التربية العملية للحد من تفاقم الكثير من القضايا النزاعية والظواهر الاجتماعية بالموعظة الحسنة والسعي إلى إرجاع أفراد المجتمع إلى احترام الجماعة والقيم الإسلامية السمحة كالتعاون وإصلاح ذات البين ودرء المفسدات المترتبة على انتشار الطلاق والتفكك الأسري وتعاطي المحرمات من المخدرات والخمور.

9. ينبغي على القائمين على الزوايا وحتى المساجد مساهمة مستجدات الحياة الاجتماعية، خاصة أن التصوف الإسلامي المتسم بالوسطية والاعتدال وسمو التعامل مع الآخر وضيافته إصلاح المجتمع وهي غاية كل مسلم.

5. خاتمة:

إن التصوف رافد من روافد الثقافة والتاريخ الجزائري، ينبغي إعادة الاعتبار لثرائه ومواقفه المشرفة، وتصحيح الصورة المشوهة عنه في أذهان العامة والخاصة، وإصلاح ما علق به من مظاهر البدع والخرافات التي ألبت عليه الخصوم الرافضين له جملة وتفصيلاً.

إن للدين سلطان روحي على المجتمع رغم مظاهر البعد عن سمات الأخلاق الإسلامية في الحياة العامة والخاصة للمجتمع فما أحوجنا إلى تفعيل روافدنا الثقافية من تراث صوفي ومدارس قرآنية وكتاتيب ومساجد كادت تفقد دورها المنوط بها في التربية والتوجيه وإصلاح المجتمع والتعليم.

6. قائمة المراجع:

- أبو العباس أحمد بن محمد زروق، قواعد التصوف، صححه وعلق عليه: محمد زهري النجار، 1419هـ/1998م، المكتبة الأزهرية للتراث.
- المزيدي، أحمد فرد، الإمام الجنيد سيد الطائفتين مشايخه، أقرانه، تلامذته، أقواله، كتبه ورسائله، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2006
- القشيري، أبو القاسم عبد الكريم، تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات: تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 2007م.
- الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الشعب، (د.ت)، ج2.
- السراج الطوسي، اللمع، تحقيق وتقديم عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، مصر، دار الكتب الحديثة، مكتبة المثنى، بغداد، 1960م.
- الأصفهاني أبو نعيم أحمد، حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، مكتبة الخاندي، القاهرة، دار الفكر، بيروت، 1996م، ج7.
- الشهرستاني، أو الفتح محمد عبد الكريم، الملل والنحل - دار الفكر، بيروت - لبنان (د.ت).
- محمد جلال شرف: دراسات في التصوف الإسلامي، شخصيات ومذاهب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1984م، 1404هـ.
- ابن خلدون، المقدمة، اعتناء ودراسة: أحمد الزعبي، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- الشاطبي، الموافقات، كتاب الأحكام، المحقق عبد الله دراز ومحمد عبد الله وعبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، لبنان ط7.
- مجدي محمد محمد عاشور، الثابت والمتغير في فكر الإمام أي إسحاق الساطي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ط2، 2002.
- أحمد زروق الفاسي: قواعد التصوف، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية،

بيروت، ط3، 2007.

- شرح أبي داود للعلامة آبادي، دار الحديث، القاهرة، ط 2001.
- أبو الحسن الندوي، ربانية لا رهبانية، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت، ط1، 2000م.

7. الحواشي والإحالات :

- ¹ أبو العباس أحمد بن محمد زروق، قواعد التصوف، صححه وعلق عليه: محمد زهري النجار، 1419هـ. 1998م المكتبة الأزهرية للتراث، ص04.
- ² صححه مسلم، دار الحديث، القاهرة، ط 1، 1991م، ج 1، ص37.
- ³ المزيدي، أحمد فرد، الإمام الجنيد سيد الطائفتين مشايخه، أفرانه، تلامذته، أقواله، كتبه ورسائله، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1، 2006م، ص260.
- ⁴ المصدر السابق، ص260.
- ⁵ القشيري، أبو القاسم عبد الكريم، تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات: تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 2، 2007م، ج 3، ص223.
- ⁶ الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الشعب، د ت، ج 2، ص 203، 207.
- ⁷ المصدر نفسه، ج 2، ص210.
- ⁸ المصدر نفسه، ج 2، ص 211-213.
- ⁹ السراج الطوسي، اللمع، تحقيق وتقديم عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، مصر، دار الكتب الحديثة، مكتبة المثنى، بغداد، 1960م، ص22.
- ¹⁰ القشيري، تفسير القشيري، المسمى الطائف الإشارات، ج1، ص18.
- ¹¹ الأصفهاني أبو نعيم أحمد، حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، مكتبة الخاندي، القاهرة، دار الفكر، بيروت، 1996م، ج7، ص33.
- ¹² الشهرستاني، أو الفتح محمد عبد الكريم، الملل والنحل - دار الفكر، بيروت - لبنان(د ت)، ص101.
- ¹³ محمد جلال شرف: دراسات في التصوف الإسلامي، شخصيات ومذاهب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1404هـ/1984م، ص17.
- ¹⁴ ابن خلدون، المقدمة، اعتناء ودراسة: أحمد الزعبي، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، دت، ص. 25.
- ¹⁵ المصدر السابق، ص. 23.
- ¹⁶ المصدر السابق، ص. 27.
- ¹⁷ رواه البخاري ومسلم.
- ¹⁸ المصدر السابق، ص. 27.
- ¹⁹ المصدر السابق، ص. 28.
- ²⁰ الشاطبي، الموافقات، كتاب الأحكام، المحقق عبد الله دراز ومحمد عبد الله وعبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، لبنان ط7، ص 205، 299-300.

- ²¹ مجدي محمد محمد عاشور، الثابت والمتغير في فكر الإمام أي إسحاق الساطي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، دبي ط 2، 2002 ، ص 456 .
- ²² الشاطبي الموافقات . 343-340 / 3
- ²³ الشاطبي الموافقات ، 338 / 1 ، 130 / 2
- ²⁴ أحمد زروق الفاسي، واعد التصوف، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 2007، ص 43.
- ²⁵ شرح أبي داود للعلامة آباي ، دار الحديث ، القاهرة ، ط 2001، 8/309
- ²⁶ الشاطبي ، الموافقات، 2/135
- ²⁷ الشاطبي ، الموافقات، 1/315
- ²⁸ أبو الحسن الندوي، ربانية لا رهبانية، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت، ط 2000 م، ص 23-25
- ²⁹ أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمه أم المؤمنين.